سلسلة: ((ما يسرهم أنهم عندنا)) ... (16)

إشراقة الصباح.. في سيرة سعد أبي الدحداح

كتبها
أبو قتادة الطيب الوهراني

منشورات جمادى الأولى 1438هـ

سلسة «ما يسرهم أنهم عندنا» . . . **(16)**

إشراقة الصباح..

في سيرة سعد أبي الدحداح

تقبله الله في الشهداء..

بقلم: أبي قتادة الطيب الوهراني.

منشورات جمادى الأولى 1438هـ

3 2 1

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى صحابته الغر الميامين.

أما بعد :

بين يدي كلماتي ..

إنني حين أحاول الكتابة عن أبطالنا أو رجالنا أو شبابنا الذين قضوا في سبيل الله -كما نحسبهم-، تخنقني العبرات وتغرورق عيناي حزناً على فراقهم، فلازلت إلى اليوم أتحامل على نفسي وأدفعها كي أسطر شيئا عن مآثر أولئك الأخيار كما نحسبهم.. لا سيما وأني لست مؤهلا للكتابة عنهم، خاصة الأفاضل منهم، وكلهم أفاضل إن شاء الله تعالى..

وسأذكر اليوم بإذن الله تعالى، نبذة يسيرة عن سيرة أخ من إخواننا لولا الجهاد ما عرفناه ولا تشرفنا بصحبته، وإن كنت أعلم أني لن أوفيه حقه كتابة ولا سردا وذلك لكثرة محامده ومناقبه، لكن: مالا يدرك كله لا يترك جله.. وقد جعلته فصولا حتى يسهل على القارئ متابعتها إن شاء الله تعالى.

مولده ونشأته:

هو الأخ الفاضل «**سعد أبو الدحداح**» واسمه الحقيقي«**شريف بوعلام**»، من أروع من عرفت وعايشت من شباب الجهاد على أرض الجزائر، ولد رحمه الله في ولاية «**ورقلة**»، ثم انتقل مع عائلته إلى الجزائر العاصمة، حيث نشأ و ترعرع فيها، متنقلا بين فصول مدارسها المختلفة إلى أن تخرج من الجامعة. وقد أنعم الله على أخينا أبي الدحداح بالالتزام منذ الصغر، حيث كان قلبه مشرقا بحب دينه، متلهفا للنهل من تعاليمه وفضائله، حييًا خلوقًا ومؤدبًا، طويل الصمت جميل سمت. تنقل رحمه الله عبر مختلف أطوار الدراسة المختلفة (من الابتدائي حتى الجامعي) متميزا بين أقرانه بالنبوغ والتفوق، مجتهدا في دراسته دون كلل ولا ملل، كما كان ذا ثقافة واطلاع واسع في فنون ومعارف شتى. وكم كانت نفسه تواقة للجهاد في سبيل الله والدبّ عن دينه وحياضه، شغوف قلبه للقيا المجاهدين ومشاركتهم في حمل راية وأعباء هذا الدين العظيم مهما كان الثمن، وهو ما جعله مولعا بسماع قصص الجهاد وسير أبطاله ورجالاته...

مأساته في السجن:

وفي أثناء محاولته الالتحاق بالمجاهدين والعمل معهم، قدّر الله لفارسنا رحمه الله أن يبتلى بالأسر في سجون الطواغيت وقد حكم عليه بالسجن لمدة 7 سنين، وكان هذا من أول الابتلاءات التي صادفته على درب الجهاد، فاجتمع عليه ـ رحمه الله ـ غربة السجن وعذابه مع مرضه، حيث كان يعاني من مشاكل صحية منذ طفولته، ورغم معاناته من الأسر والمرض إلا أن نفسه لم تهن ولم تستسلم، بل استغل فراغه في السجن واستثمره في طلب العلم وحفظ كتاب الله الكريم.. ولما كانت نفسه للمعالي طالبة وعن الدونية راغبة، فقد وفقه الله عز وجل لحفظ كتابه الكريم كاملا ـ وأنعم به من خير عظيم ـ، ولم يكتف بذلك بل واصل سعيه واجتهاده حتى أنعم الله عليه بحفظ بعض المتون العلمية، فكان رحمه الله شغوفا بمطالعة الكتب، حريصا على التفقه في الدين، وكان ولوعا بكتب ابن القيم رحمه الله، فاستغل بحق فترة سجنه أحسن استغلال، ويا لها من همة..

خروجه من السجن ونفيره إلى ساحة العز:

وقد منّ الله على فارسنا بخروجه من السجن بعدما ذاق فيه من العذاب أصنافا، فلم تضعف نفسه ولم تجبن، بل ازداد يقينا بوجوب جهاد هؤلاء الظلمة الحاقدين على الدين وأهله..

وبعد طول شوق وانتظار، شرّف الله تعالى «**أبا الدحداح**» لما كان يصبو إليه، ووفقه للقيا إخوانه المجاهدين، ومنذ الوهلة الأولى ودون تردد عرض نفسه على إخوانه، وجعلها سهما في سبيل الله، باذلا روحه فداء لهذا الدين. فما كان من إخوانه إلا أن شرحوا له أن الجهاد ليس نزهة ماتعة ولا فكرة عابرة، بل طريق مليء بالمتاعب، وبذل جهد ونصب، وسفر محفوف بالمكاره، لا يثبت فيه إلا من ثبته الله من ذوي الإيمان الراسخ، والعزائم الصادقة.. فما كان من «**أبي الدحداح**» تقبله الله إلا أن عقد العزم وأبرم، وأبى إلا أن يشارك إخوانه همَّ حمل هذه الأمانة العظيمة، وطلب من إخوانه وألَحَّ عليهم بتسجيله في قائمة الاستشهاديين (**قائمة العز والشرف**)، فلله درها من نفس للمعالي طالبة.

وبعد مدة قضاها في خدمة إخوانه المجاهدين في المدينة، أذن الله تعالى لفارسنا أبي الدحداح رحمه الله بالنفير إلى مواطن العز والإباء، مع إخوانه الكرماء في جبال الجزائر الشماء، ورغم ما كان يعانيه من ضعف في البصر وبعض المشاكل الصحية، إلا أن نفسه الأبية أبت الاعتراف بالعجز والاستسلام للمرض، حيث كان يخفي

متاعبه الصحية على إخوانه خوفا من أن يعاملوه معاملة المرضى، فكان رحمه الله يجتهد ويبذل كل وسعه حتى يبدو بهيئة الأخ القادر السليم. لكن وبما أن جهادنا في مغرب الإسلام بمثابة الأسرة الواحدة، ولامناص من معرفة أفراد الأسرة حال بعضهم بعضا، فما لبث «**أبو الدحداح**» على تستره طويلا حتى اكتشف الإخوة ما كان يعاني منه من مشاكل صحية، وكان ذلك حين دخوله معسكر التأهيل والتدريب، حيث كان رحمه الله لا يطيق مشاقّ التدريب وسرعان ما تنهار قواه، وقد كاد أن يموت في إحدى حصص التدريب لولا لطف الله تعالى به..

قلت.. تفطن المجاهدون لحالته الصحية، فرحموه ورأفوا به، ولم يكلفوه ما لا يطيق. بعدها قرر «**سعد**» رحمه الله أن يتغلب على ضعفه في مجال التدريب، فأخذ عهدا على نفسه بالتفرغ لخدمة إخوانه بكل ما أوتي من قوة، وكان من أبغض الكلمات إليه كلمة: (أنت لا تَقّدر، وأنت لا تستطيع)..فعمد رحمه الله إلى وقته فقسمه فجعل منه جزءا للحفظ، ووقتا لمراجعة كتاب الله والمذاكرة، ووقتا لخدمة إخوانه، حيث كان يعتني بالإخوة ويجهزهم ويتفقد شؤونهم في غدوهم ورواحهم، فإذا رجع المجاهدون من بعض مهماتهم تراه يسارع ليهيئ لهم الطعام، ويغسل ثيابهم وكأنهم ضيوفا حلوا بداره، تعلو محياه علامات البهجة والسرور، فكان رحمه الله ينسى حتى نفسه أحيانا من كثرة خدمته لإخوانه المجاهدين والسهر على شؤونهم رغم ما ابتلي به من أمراض، فيصاب أحيانا بالجوع والعطش ولا يشعر، ويحتاج إلى النوم من التعب ولا يبالي، متلذذا بخدمة إخوانه محتسبا أجره عند الله، فكان رحمه الله مضرب المثل في خدمة إخوانه والسهر على شؤونهم والأغرب من ذلك أنه كان ينافس حتى الأصحاء من إخواننا، نسأل الله أن يتقبل منه ويتولى أمرنا، ويجبر كسرنا، ويغفر ذنبنا وتقصيرنا..

شيء من مآثره وخصاله رحمه الله:

الصبر والرضا بما قسم الله له:

ومن بين أهم تلك الأمراض التي ابتلي بها الأخ سعد رحمه الله تعالى، أنه كان ضعيف البصر وخاصة إذا كان في مسير ليلي، فإنه يختلط عليه الظلام مع صعوبة المشي وثقل الحقيبة، فكان رحمه الله يتعب تعبا شديدا.. ورغم كل ما ذكرت فإن سعدا فيما نحسبه أنه كان راضيا بما قسم الله له، لا يشتكي ولا يتضجر ولا يتأفف، بل يحمد الله ويصبر، فتجده محتسبا في مسيره، ذاكرا ربه ومرتلا لكتابه حين يأخذ قسطا من الراحة..

ومما أذكر عن صبر سعد في مسيره، أنه خرج معنا في إحدىٰ الخرجات الليلية، وعند رجوعنا إلىٰ المعسكر دخل كل الإخوة إلا سعدا وأخ ثان تخلف معه (رحم الله الجميع)، فتفقد الإخوة الحاضرون بعضهم بعضا، وراحوا يعدون الإخوة الذين كانوا خارج المعسكر عدا، فاختلط عليهم الحساب ولم يعرفوا المفقود منهم، فتذكرت سعدا وقلت للإخوة أن سعدا وفلانا لم يأتيا بعد، فقال لي الأمير: رجائي منك أن تذهب إلىٰ حيث كنا، فوالله لا ولن يدخلا أبدا، وستختلط عليهما الطريق ..

فعزمت أمري ورجعت مسرعا في الظلام الدامس علىٰ أمل أن أصل إلىٰ المكان الذي انقطع فيه المسير، فما إن مشيت دقائق معدودة حتىٰ بدأت أسمع خشخشتهما، فعرفت أن سعدا وصاحبه قد ضلا الطريق، فوالله لولا خشخشتهما ما وجدتهما من شدة الظلمة الحالكة، فناديته يا سعد؟ فمجرد سماعه النداء فرح، وقال في الحين أين أنت؟ قلت أنا صوبك، وبدأت أوجهه عن بعد حتىٰ وصل إلي.. وسبحان الله، رغم التيه وشدة التعب الذي أصابه خلال ربع ساعة أو أكثر، لم يضجر و لم يأسف.. فقلت في نفسي حين رأيت منه الجلد والصبر: الله المستعان ما أصبره؛ ثم تبعني يمشي ولم أسمع منه ولا كلمة تسخط أبدا..

خشيته وعبادته:

كان رحمه الله طويل الصمت كثير الذكر، لا يفتر تاليا لكتاب ربه مراجعة وتدبرا، يقوم بالقرآن ويقعد به، ولا يكاد لسانه يفتر من تلاوته أبدا. وقد كان رحمه الله بكاء من خشية الله عز وجل ـ أحسبه والله حسيبه ـ ومما لا زلت أذكره أنه كان مرة يعرض علي جزءا من القرآن الكريم وفجأة وإذا به يبكي!!

فقلت له: أخي سعد ما الذي جرىٰ؟ ما يبكيك يا سعد؟ ما الذي تذكرته؟ وما الذي استحضرته؟ ما بك أخبرني؟ فاستمر باكيا؛ وأحسبه أنه تذكر موقفه بين يدي ربه عز وجل، فرَّق قلبه ودمعت عيناه، فلك الله من قلب حي..

وقد شرفني الله عز وجل أن عشت مع أخي سعد قرابة ستة أشهر في معسكر واحد، فكنت في تلك الفترة الجميلة إذا استيقظت من نومي فجرا، يممت بطرفي نحو مكانه مباشرة، فأجده واقفا يصلي، فأستحيي من نفسي وأقول: إنه لم يبق للأصحاء مثلي عذر في أي شيء، لله دره ما أعلىٰ همته.. فكان رحمه الله إذا استيقظ وأراد الوضوء ليناجي ربه في الثلث الأخير، تراه يتسلل من بين إخوانه حريصا أن لا يوقظ أو يزعج أحدا، مختليا بنفسه يدعو ربه ويتضرع.

سعة صدره وسلامة لسانه:

وإن كنت أغبطك يا سعد فإني أغبطك على حفظك لسانك عن الخوض في أعراض المسلمين عامة والمجاهدين خاصة، وأحسبك أنه قد شغلك عيبك عن عيوب الآخرين، فقد كان رحمه الله لا يؤذي أحدا ولا يتسلط على أحد، حليما واسع الصدر خفيف الظل، تطمئن بقربه وتأنس بمجالسته..

وأذكر أنه رحمه الله كان إذا سمع بخبر لا يسر أو بحادثة أليمة، أو بفاجعة مبكية حلت بالمجاهدين، يحمد الله ثم يسترجع ويحوقل، ويتحاشى الخوض مع إخوانه فيما سمع، وكل ذلك احتياطا لدينه، فما أورعه وما أحلمه.. وقد كان رحمه الله لا يعرف الغش إليه طريقا ـ كما أحسبه ـ، بل كان محرضا على الإتقان والجد في العمل، لا يحب التساهل والترقيع في أي مهمة توكل إليه، محتسبا أجره عند الله ومتمثلا بين عينيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه**»

أبو الدحداح الناصح الأمين:

كان رحمه الله حريصا على النصح لإخوانه ومذاكرتهم، ومما لا يزال محفورا في ذاكرتي ولن أنساه ما حييت أبدا؛ أنه كان يقول لي بين الفينة والأخرى: هيا لأفيدك بما فتح الله علي من فوائد. ولازلت محتفظا بفائدة منذ ما يزيد عن السنتين ولا بأس أن أذكرها هنا للفائدة: قال لي: قال ابن القيم رحمه الله في كتاب الفوائد: (أنفع الناس لك رجل مكّنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرا أو تصنع إليه معروفا فإنه نعم العون لك على منفعتك وكمالك، فانتفاعك به في الحقيقة، مثل انتفاعه بك أو أكثر. وأضر الناس عليك من مكّن نفسه منك حتى تعصي الله فيه، فإنه عون لك على مضرّتك ونقصك).

فرحمه الله من ناصح و معلم، فإني والله في أمس الحاجة إلى أمثالك يذكرونني ويأخذون بيدي في مثل هذه الأيام العصيبة، وأحسب نفسي أنني تعلمت منه أمورا كانت عونا لي في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر وهذا من فضل الله علينا، فاللهم لك الحمد يا كريم ...

وكان رحمه الله ينتظر دوره للقيام بعملية استشهادية بكل شغف وشوق، مستعجلا للقيا ربه، لسان حاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ طامعا في رحمته والفوز بجنانه، فإذا طال انتظاره وزاد شوقه، أو تلا آيات الجنة ونعيمها في كتاب ربه الكريم يرق قلبه وتراه يبكي بمرارة كبكاء الطفل الصغير، مشتاقا لنيل منزلة الشهداء ومجاورة النبيين والصالحين في جنات النعيم..

مقتله رحمه الله:

سمعت بمقتل أخي سعد يوم : الثلاثاء18مارس 2014م مع ثلة صادقة من إخوانه نحسبهم أنهم ارتقوا إلى ربهم شهداء في ملحمة بطولية قدم خلالها الإخوة أروع صور الشجاعة والرجولة في مواجهة حصار خانق مع تمشيط مكثف في منطقة «**أبيزار**» بلدية «**أغريب**» ولاية «**تيزي وزو**»، استعمل فيه الطواغيت مختلف وسائل القصف والتدمير للقضاء على الثلة المحاصرة، وكنا يومها نسمع كل يوم بمقتل أخ وثان حتى وصل عدد القتلى إلى تسعة، وأذكر هنا كرامة من الكرامات التي حصلت للإخوة في ذلك الحصار نقلها لنا أحد الأحبة الذين نجاهم الله من ذلك الحصار، ونجوا من القتل بأعجوبة تكاد لا تصدق نسردها هنا على لسانه: قال حفظه الله: (...وفي تلك الأجواء المليئة بالقصف والهلع والقنابل والفزع وكان القصف ليلا، قتل أحد الإخوة رحمه الله جراء قصف عنيف كان صوبهم، فسقط مضرجا بدمائه، نظر إليه الأخ الذي بجانبه فعرف أنه قد قتل فراح ينتظر دوره ويهيئ نفسه للشهادة فلا وجود لساتر ولا مكان للتمترس فكل شيء على المكشوف كما يصف الإخوة..

ترى ما الذي فعله ذلك الأخ المنتظر لدوره؟..

لقد رأى وجه أخيه المقتول بجانبه يشع نورا إلى درجة أنه صار يلمع ويسطع كثيرا، فخشي الأخ أن يرى الطاغوت لمعانا أو شيئا من ذلك النور المشع من أخيه فينكشف أمره، ويتوالى عليه القصف مرة أخرى، فانكب على وجه أخيه يستره ويغطيه، لأن بريقه سيودي بحياته قطعا. فهذه إحدى الكرامات التي يثبت الله بها قلوب عباده المجاهدين في أيام الشدة والضيق.

نسأل الله تعالى أن يتقبل إخواننا القتلى في الشهداء وأن يجمعهم في مستقر رحمته بالصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا،

كما أسأله تعالى أن يتقبلك يا سعد في الشهداء، وأن يجعلك من عباده السعداء في دار كرامته وأن لا يحرمك من لذة النظر إلى وجهه الكريم، وأن يلحقنا بكم في الفردوس الأعلى لا فاتنين ولا مفتونين، ثابتين غير مبدلين.

آمين والحمد لله رب العالمين

كتبها أخوه المحب : أبو قتادة الطيب الوهراني.